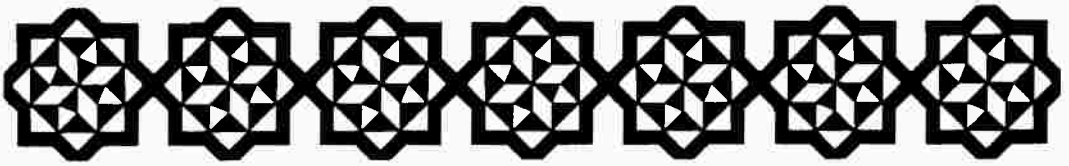

الفصل الثالث

التوسع البحري في عهد الأمويين

— ١ —

الأسطول العربى فى شرق البحر المتوسط

كان اتجاه الأسطول العربى إلى مياه القسطنطينية ، واشتراكه مع القوات العربية زمن الأمويين فى حصار القسطنطينية ، بداية مرحلة جديدة تحمل طابع التوسع البحرى ، ذلك أن أعمال الأسطول العربى السالفة من فتح قبرص ورودس ، أو وقعة ذات الصوارى ، تعتبر جزءًا من سياسة العرب الدفاعية وتأمين سلامة شواطئهم على البحر المتوسط ، غير أن وقعة ذات الصوارى جعلت العرب يدركون أنهم قد أصبحوا قوة بحرية لها خطرها فى البحر المتوسط ، وأن الموقف الجديد أصبح يحتم عليهم الفصل فى سيادة ذلك البحر ، وانتزاعه نهائيًا من قبضة الروم .

وكان معاوية هو صاحب الفضل مرة أخرى فى دفع العرب نحو التوسع البحرى ، فكما جاهد فى سبيل بناء أسطول عربى فى البحر المتوسط فإنه عمد إلى دفع العرب إلى الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الروم نفسها . ولم يكن معاوية بالشخص الذى يرتجل أعماله ، وإنما يقدم على مشاريعه عن روية وتمحيص ، فما كاد يستتب له الأمر بعد النزاع الداخلى الذى نشب بينه وبين على بن أبى طالب ، وما كاد يصبح خليفة للدولة الأموية ، حتى أخذ يعد الأسطول العربى لمساعدة قواته البرية فى الاستيلاء على القسطنطينية .

وجاءت سياسة معاوية البحرية الجديدة عنواناً على فهمه التام لأوضاع البحر المتوسط ، إذ أدرك بثاقب نظره أن القسطنطينية عصب جزر البحر المتوسط الشرقى ، تغذيها بالقوات والإمداد ، وتشجع أهاليها على شن الغارت

على سواحل العرب بالشام ومصر . وقوّى هذا الاتجاه عند معاوية حملاته المتكررة على جزيرة قبرص ، ودأب الروم على اتخاذ تلك الجزيرة شوكة تخز فى جنب البلاد العربية المطلة على البحر المتوسط .

واستهل معاوية سياسته البحرية التوسعية بتقوية الثغور البحرية فى كل من الشام ومصر ، وشحنها بالجند المدربين على ركوب البحر ، ثم بث النشاط فى دور الصناعة بكل من مصر والشام ، كذلك لإنتاج السفن الحربية وغيرها من المراكب الخاصة بنقل المؤن والعتاد ، وفى نفس الوقت أعد معاوية قواته البرية التى خصصت للتعاون مع القوات البحرية العربية فى الهجوم على القسطنطينية .

وتعتبر حملات العرب على القسطنطينية حجر الزاوية فى بناء سياسة بحرية جديدة لم يعرفها التاريخ على نطاق واسع إلا فى الحرب العالمية الأخيرة ، وقوامها خلق تعاون قوى ، وتنسيق تام بين القوات البرية والبحرية فى الهجوم والغزو . ويرجع السبب فى اتخاذ العرب تلك السياسة الجديدة إلى إغارات سكان جبل اللكام القريبين من حدود آسيا الصغرى التابعة للروم على أراضى الشام .

وكانت طبيعة جبل اللكام تساعد سكانه ــ وهم الذين أطلق عليهم العرب اسم المردة بسبب خروجهم دائماً على النظام وتمردهم ــ على تنفيذ خططهم العدوانية بدون أن يناهم ضرر أو أذى ، إذ أغاروا من موطنهم بجبل اللكام على سلسلة جبال لبنان ، وأفادوا من موقعها الجغرافى وخلوها من المحارس . فجبال لبنان تمتد من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى ، وتقسم إقليم الشام قسمين ، أحدهما يطل على البحر ويضم الأقاليم الساحلية ، والآخر الأقاليم الداخلية البرية . وكانت أقاليم الشام الداخلية تعتمد فى حياتها على المدن الساحلية ، وتتصل بها عبر ممرات هامة فى هذه السلسلة الجبلية ، ولذا هدف الروم باتخاذ

المردة عضدًا لهم ، ودفعهم إلى الإغارة على جبال لبنان سبيلاً لشل التعاون بين أساطيل المسلمين فى القواعد البحرية وبين الجنود البرية فى الداخل .

وظهر تعاون المردة مع الروم فى تعطيل جهود المسلمين البحرية سنة ٤٧ هـ ــ ٦٦٦ م ، أى قبل عامين من قيام أول حملة عربية برية وبحرية ضد القسطنطينية ، إذ حين ترامت إلى سلطات الروم أنباء استعدادات معاوية للهجوم برًّا وبحرًا على القسطنطينية ، اندفع المردة مع قوات من الروم عبر جبال لبنان لإحداث اضطراب فى صفوف الحملة المنتظرة . ولكن المردة لم يلبثوا أن عادوا إلى قواعدهم حين عبأ معاوية قواته للقضاء عليهم ، وانسحب الروم إلى آسيا الصغرى .

وترتب على إغارة المردة تعديل فى سياسة العرب البحرية ، إذ أدركوا ضرورة تأمين أسباب التعاون بين قواتهم البرية والبحرية ، حتى يتجنبوا عنصر المفاجأة ، ولاسيما أنهم على أهبة توسع بحرى عظيم ، فوضع معاوية جماعة من خيرة جند العرب فى مراكز حربية على امتداد جبال لبنان استطاعت أن تحمى ظهر القوات البرية والبحرية فى نفس الوقت فى إقليم الشام (١) .

وفى سنة ٤٩ هـ ــ ٦٦٨ م أرسل معاوية حملة استطلاعية برية وبحرية لدراسة الطرق المؤدية إلى القسطنطينية . (٢) وفى العام التالى أعد معاوية مددًا آخر لشد أزر القوات البرية والبحرية التى خرجت للهجوم على القسطنطينية فى العام السالف ، ووضع على رأسها ابنه وولى عهده يزيد ، وبلغ من اهتمام معاوية بأمر هذه الحملة وإكسابها طابع الجهاد المقدس أن ضم إلى ابنه شخصية كبيرة من أصحاب الرسول الكريم ، وممن لعبت دورًا رئيسيًّا فى مُؤازرته ونصرة دعوته ، وهو أبو أيوب الأنصارى ، الذى أشرنا إليه آنفاً .

---

(١) البلاذرى . فتوح البلدان ، ص ١٦٩ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٦ ، ص ١٣٠ .

وعلى ضفاف البسفور نقلت السفن العربية تلك الأمداد التى حاصرت القسطنطينية ، وقد أظهر الجند العرب فى ذلك الحصار تفانياً عظيماً ، جعل يزيد يلقب لشهامته باسم « فتى العرب » ، على حين توفى أبو أيوب الأنصارى ـــ كما سبق أن ذكرنا ـــ وهو يحاصر القسطنطينية ، ودفن بالقرب من أسوارها (١) . ثم رفع العرب الحصار سنة ٦٦٩ م ، بعد أن تبين لهم أن خير سبيل للاستيلاء على القسطنطينية هو إعداد أسطول قوى ، يقف على قدم المساواة مع القوات البرية .

وتعتبر الحملة التى قادها يزيد بن معاوية ضد القسطنطينية حملة استطلاعية ، استهدفت معرفة موقع تلك العاصمة ، وأمثل الطرق للاستيلاء عليها ، وكانت نتيجة تلك الدراسات التمهيدية هى أن الهجوم على القسطنطينية يتطلب إعداد أسطول عربى قوى ، يقف على قدم المساواة مع القوات البرية ، وضرورة وضع خطة تنسق التعاون بين كل من القوتين البرية والبحرية أثناء حصار تلك المدينة المنيعة .

واكتسبت القسطنطينية تلك المكانة الاستراتيجية بسبب إحاطة المياه بها تقريباً من ثلاث جهات ، فقبل اتصال مياه البسفور ببحر مرمرة يمتد داخل الشاطىء الأوربى خليج عظيم طوله سبعة أميال فى انحناء أشبه بالمنجل أو القرن ، جعله يعرف فى التاريخ باسم « القرن الذهبى » ، وبين القرن الذهبى وبحر مرمرة قامت رأس أرض تلالية ، على شكل مثلث متساوى الضلعين تقريباً ، رأسه يقابل الشاطىء الآسيوى . وعلى تلك البقعة الفريدة نشأت القسطنطينية التى صارت تنعم بميناء طبيعى فى القرن الذهبى ، يكفل لأساطيلها الحماية ، فضلا عن حصانة المدينة نفسها ، لأن المياه تحيط بها تقريباً من الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية .

---

(١) المرجع السابق . ج ٦ ص ١٣٠

وبعد أن قام العرب بحملتهم الأولى الاستطلاعية ضد القسطنطينية ، وجه أباطرة الروم جهدهم لتأمين وتدعيم وسائل الدفاع عن تلك العاصمة ، واستهدفت سياسة الروم إقامة حلقة محكمة من الأسوار والحصون تكفل للعاصمة مقاومة أى حصار يفرض عليها ، برًّا كان أم بحرًا ، ولأطول مدة ممكنة . فشيد الأباطرة على جانب القسطنطينية البرى الممتد من البسفور إلى القرن الذهبى سورًا متيناً ، صار يُكَوِّنُ قاعدة المثلث الذى تحتله المدينة. واشتمل ذلك السور على جدارين ، أحدهما ملتصق مباشرة بالمبانى ، ويكون خط الدفاع البرى الأول ، وتعلوه الأبراج والحراس ، والجدار الثانى الخارجى أكثر ارتفاعاً من الجدار الداخلى ، ويحيط به خندق عرضه ٦١ قدماً لعرقلة زحف القوات المعادية على العاصمة .

غير أن اهتمام الأباطرة الأعظم اتجه إلى شئون العاصمة البحرية ، إذ أقاموا جدارناً هائلة للدفاع عن القسطنطينية من ناحية البحر ، وغدت تلك الأسوار تحيط بجميع الجهات البحرية الثلاث للعاصمة ، وتعتمد فى منعتها وقوتها على القلاع والحصون أكثر من اعتمادها على سُمك الجدار وضخامته ، فكان على امتداد القرن الذهبى وبحر مرمرة أسوار بحرية تتصل بالسور الأرضى الذى يُكَوِّنُ خط الدفاع البرى عن العاصمة .

ولم يقف اهتمام السلطات فى القسطنطينية عند الجانب الدفاعى الخاص بإقامة الأسوار ، وإنما حصنوا أيضاً الموانى التى ترسو بها الأساطيل المدافعة عن العاصمة . فإلى جانب القرن الذهبى كان للقسطنطينية موانى أخرى صغيرة تطل على البسفور ، وأدَّت تلك الموانى برغم صغرها دورًا هامًّا فى تسهيل الملاحة فى مياه القسطنطينية ، إذ كانت السفن تجد فيها أماكن هادئة تأوى إليها عند اشتداد التيار المتدفق من البحر الأسود إلى بحر مرمرة ، والذى يزيد من حدته هبوب الرياح الشمالية العاصفة ، فقد ترتب على هذا التيار والرياح معاً

عرقلة السفن التى تبغى الطواف حول رأس القسطنطينية ودخول القرن الذهبى ، لتلقى مراسيها عنده .

وفى ذلك الوقت الذى جهدت فيه دولة الروم فى تحصين عاصمتها ، صمم معاوية بن أبى سفيان على إعداد حملة ثانية تستهدف الاستيلاء على القسطنطينية قبل أن يتم الأباطرة وسائل الدفاع عنها ، وكان للأسطول العربى المكانة الأولى فى تلك الحملة التى سارت طلائعها فى سنة ٥٣ هـ ــ ٦٧٣ م بقيادة عبد الرحمٰن بن خالد ، وقد حل فصل الشتاء والأسطول فى طريقه إلى مياه القسطنطينية ، فألقت السفن مراسيها على شاطئ قليقية حتى يتحسن الجو .

وبمطلع الربيع عززت قوات خالد البحرية بوصول أسطول عربى آخر ، ثم استأنفت القوات جميعها الزحف على القسطنطينية . وفى شهر أبريل اجتاز الأسطول العربى مضيق الدردنيل بدون أن يلقى مقاومة ، واستولى على جزيرة قزيقوس (أرواد فى المراجع العربية) فى مياه القسطنطينية الإقليمية ، واتخذها قاعدة لإدارة حملاته ضد العاصمة .

وجرت أحداث الحصار العربى للقسطنطينية وفق خطة كان للأسطول فيها الدور الرئيسى ، إذ نقلت السفن العربية الجند إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية الخارجية ، على حين يكمل الأسطول حلقة الحصار بأن تمتد سفنه بين رأس « هبدومون » التى تبعد سبعة أميال عن أسوار القسطنطينية ، وبين رأس « كيكلبيوس » الواقعة بالقرب من أحد أبواب العاصمة المعروف بباب الذهب .

واستمر الحصار البرى البحرى للقسطنطينية من شهر أبريل إلى سبتمبر ، حيث تخللته المناوشات بين أساطيل العرب والروم ، وبين جند كل منهما كذلك ، فكانت سفن الروم والعرب تتصادم من الصباح إلى المساء ، على حين

تتراشق القوات البرية بالسهام والقذائف . وظلت المعارك بين الفريقين سجالاً بدون أن يستطيع أحدهما التغلب على الآخر .

وفى شهر سبتمبر ، أى بحلول الشتاء ، رفع العرب الحصار عن القسطنطينية ، بسبب رداءة الأحوال الجوية بالقرب من تلك المدينة ، ولكن العرب أظهروا بفضل أسطولهم من الجد والمثابرة ما أثار قلق سكان عاصمة الروم ، إذ فى شهر سبتمبر ، الذى رفع فيه العرب الحصار ، عادت سفن أسطولهم تحمل الجند إلى جزيرة أرواد ، التى بها قاعدة الأسطول ، لتقضى بها فصل الشتاء ، وتنتظر تحسن الأحوال الجوية لإعادة الحصار على المدينة .

وبمطلع الربيع عادت سفن الأسطول العربى تحمل الجند إلى أسوار القسطنطينية ، على حين تابع الأسطول حصار المدينة بحرًا ، كما حدث فى العام السالف ، وقد أنزل الأسطول العربى بالجند المدافعين عن القسطنطينية خسائر فادحة ، ولكن بدون أن يتمكن من اقتحام الأسوار البحرية ، وسرعان ماحل الشتاء مرة أخرى ، واضطر الأسطول إلى نقل الجند ثانية إلى جزيرة أرواد .

وقد تكررت تلك الخطة الحربية لحصار القسطنطينية سبع سنوات ، يبدأ الأسطول العربى فيها بنقل الجند إلى أسوار المدينة فى مطلع الربيع ، ثم يكمل هو حلقة الحصار من البحر ، ثم يعود فينقل الجند شتاء إلى جزيرة أرواد انتظارًا لمقدم الربيع التالى ، وهكذا . وأظهر أمراء البحار العرب فى أحداث هذا الحصار الكثير من ضروب البسالة والشجاعة ، ذلك أن الروم قد عرفوا فى تلك الفترة النار البحرية لأول مرة ، وهى سلاح خطير أتعب الأسطول العربى ، لأن كرات النار التى قذفها الروم كانت تشتعل على الماء وعلى ظهور السفن على السواء ، بدون أن يعرف العرب إذ ذاك وسيلة لإطفائها .

غير أن هذا السلاح الجديد لم يفت فى عضد أمراء البحار العرب ، وإنما جاءتهم الإمدادات البحرية تباعاً ، إذْ وصل أسطول عربى آخر تحت قيادة

سفيان بن عوف شد من أزر القوات العربية المحاصرة للقسطنطينية ، على حين أسهمت السفن العربية فى مهاجمة أساطيل الروم وحملتها على الانزواء فى موانى العاصمة ، برغم استخدام تلك الأساطيل للنار البحرية .

وبعد سبع سنين من تلك الحروب المضنية أحس معاوية بن أبى سفيان بدنو أجله ، وأنه لابد من سحب الأسطول العربى والقوات البرية المحاصرة للقسطنطينية حتى لاتتعرض تلك الحملة إلى الأخطار إذا ماحلت به الوفاة وهى مازالت مشتبكة مع العدو ، ومن ثم دخل معاوية فى مفاوضات مع الروم لسحب أسطوله وقواته ، وكانت دولة الروم تتلهف على إنهاء ذلك الحصار القاسى ، وأرسلت إلى دمشق رجلاً يدعى يُوحنا ، وهو من أشهر رجالها الدبلوماسيين ، وأكثرهم ذكاء وفطنة .

وقد حضر يوحنا جلسات كثيرة فى دمشق ، ضمت خيرة أبناء البيت الأموى ، وأبدى فيها من الإجلال للخلافة الأموية ما أكسبه تقدير معاوية واحترامه ، ولذا نجحت مفاوضات يوحنا فى عقد صلح بين دولته والخلافة الأموية مداه ثلاثون عاماً ، وبعد إبرام المعاهدة عادت الأساطيل العربية والقوات البرية من حصارها للقسطنطينية إلى قواعدها بالشام ، بعد أن أثبت العرب للروم أن عاصمتهم ليست بعيدة المنال عن قبضة البحرية العربية الناشئة وضرباتها الشديدة .

وتعتبر تلك الحملة البحرية على القسطنطينية عنواناً على قوة جَلَدِ العرب وقدرتهم على اكتساب الخبرات فى الميدان البحرى فى سرعة فائقة ، إذ عرف أمراء البحار طبيعة المنطقة التى تشغلها عاصمة الروم ، وقوة أسوارها وأنواع استحكاماتها ، وذلك على أُسس من الدراسة والتمحيص ، بدون أن يعتمدوا على الارتجال ، ويدل على ذلك اختيار جزيرة أرواد القريبة من القسطنطينية لتكون مركزًا لحركات الأسطول العربى فى الصيف والشتاء فى مياه تلك

العاصمة ، وكذلك دلت أحداث الحصار البحرى على أن العوامل الطبيعية وحدها من تدفق التيارات المائية هى التى عرقلت استيلاء الأسطول العربى على القسطنطينية .

ولقد كان معاوية بعيد النظر حين عجل بسحب الأسطول العربى بعد أن حاصر القسطنطينية حصارًا شديدًا مدة سبع سنوات كاملة ، إذ ما كادت سفن الأسطول تلقى مرساها فى قواعد الشام سنة ٦٨٠ م حتى توفى معاوية فى نفس العام ، تاركاً ابنه يزيد الذى تولى منصب الخلافة وسط معارضة شديدة من بعض كبار رجالات العرب ، وعلى رأسهم الحسين بن على بن أبى طالب ، وعبد الله بن الزبير .

وقد ترتب على تلك المعارضة الشديدة حدوث انقسام فى الدولة الإسلامية ، وقيام حروب أهلية مريرة صرفت جهد البيت الأموى عن متابعة النشاط البحرى ، وفضلاً عن ذلك فإن مشاكل البيت الأموى لم تنتهِ بقضاء الخليفة يزيد بن معاوية على ثورة الحسين بن على بن أبى طالب ، بل حدث انشقاق فى البيت الأموى نفسه عقب وفاة يزيد وتخلى ابنه معاوية الثانى عن الخلافة ، ذلك أن نفرًا من بنى أمية تطلع إلى انتزاع الخلافة لنفسه ، وانتهى النزاع سنة ٦٤ هـ ــ ٦٨٥ م حين تولى مروان بن الحكم الخلافة ، مسجلاً بذلك انتقال زمام الدولة الإسلامية من البيت السفيانى إلى البيت المروانى .

ولم يترتب على ذلك الانقلاب فى مصدر السلطان فى البيت الأموى تغيير فى سياسة العرب البحرية تجاه البحر المتوسط ، إذ تابع أفراد البيت المروانى سياسة الفرع السفيانى فى الاهتمام بالأسطول العربى ، وتدعيم قواعده فى البحر المتوسط ، وكانت آية هذا النشاط المروانى هو نجاح الخليفة عبد الملك بن مروان فى إقصاء المردة ــ الذين دأب الروم على استغلالهم فى شل التعاون بين القوات البرية العربية والأسطول العربى ــ عن أماكنهم نهائيًا بجبل اللكام .

ويرجع نجاح الخليفة عبد الملك بن مروان إلى دهائه ، وقصر نظر معاصره إمبراطور الروم ، وهو جستنيان الثانى ، إذ دخل عبد الملك مع هذا الإمبراطور فى مفاوضات تستهدف نقل المردة من جبل اللكام إلى داخل أراضى الروم مقابل دفع ١٠٠٠ دينار سنويًّا . ولم يجد عبد الملك أية غضاضة فى دفع هذا المبلغ مقابل إبعاد أكبر خطر يتهدد قواعد الأسطول العربى بالشام ، ونجحت تلك المفاوضات ، حيث نقل جستنيان الثانى ١٢٠٠٠ من المردة إلى رومانيا ، على حين ذهب بعضهم إلى تراقيا ، وتبعثرت البقية الباقية منهم داخل آسيا الصغرى (١).

وبذلك كسب عبد الملك جولة هامة فى دعم الأسطول العربى ، فى فترة كان مشغولا فيها بثورة عبد الله بن الزبير ، الذى حمل لواء المعارضة للبيت الأموى بعد مقتل الحسين بن على بن أبى طالب . وقد أحس المعاصرون من الروم خطورة عمل جستنيان الثانى ، وفداحة الخطأ الذى تردى فيه حين أجاب الخليفة عبد الملك إلى طلبه ، إذ قال أولئك المعاصرون : إن نقل المردة حطم « الستار الحديدى » (٢) الذى وقف فى وجه طلائع الأسطول العربى وقواته فى هجومها على بلاد الروم .

وعندما توفى الخليفة عبد الملك سنة ٧٠٥ م ، ترك لابنه الوليد دولة ثابتة الأركان ، ولاسيما بعد أن نجح فى القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير . وكان الوليد خير خلف لأبيه ، إذ تابع سياسة تقوية الأسطمل العربى ، وخَلْقِ تَعاوُنٍ قوى بينه وبين القوات البرية . واتخذ الوليد من بلاد الروم فى آسيا الصغرى ميداناً تتدرب فيه القوات البحرية العربية والبرية على التعاون فى الهجوم على معاقل الروم ، تمهيدًا للزحف على القسطنطينية .

---

(١) الطبرى : ج ٥ ص ١٣٠ .

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ١٠٨ .

وأسهم الأسطول العربى فى تلك التدريبات مساهمة فعالة ، اتسمت بالمغامرة كذلك . وفى إحدى حملات الأسطول العربى سنة ٩٠ هـ ــ ٧٠٩ م وقع أمير البحر العربى خالد بن كيسان أسيرا فى أيدى أسطول الروم ، غير أن إمبراطور الروم آثر مهادنة العرب ، وأعاد خالد بن كيسان للخليفة الوليد ، برهاناً على تطلعه إلى الوئام والسلام (١) .

ولكن الخليفة الوليد لم يغض النظر عن عاصمة الروم ، وأدرك ضرورة الزحف على تلك العاصمة ليحرم أسطول أعدائه من أهم قاعدة له فى البحر المتوسط ، ولذا أخذ الوليد يعد حملة بحرية وبرية قوية ، نَصَّبَ عليها أخاه مسلمة بن عبد الملك . وفى سنة ٧١٤ م ترامت إلى سلطات الروم أنباء الاستعدادات البحرية العربية ، فأوفد الإمبراطور أنسطاسى سفارة إلى دمشق تفاوض الأمويين فى عقد هدنة ، وتتأكد فى نفس الوقت من مدى استعداد الأسطول العربى ، وكان رئيس تلك السفارة رجلا حصيفاً يدعى دانيال ، حاكم مدينة سينوب ، ومن الشخصيات الكبرى التى تعتمد دولة الروم على صدق تقاريره (٢) .

ولما وصلت سفارة الروم إلى دمشق شاهد ضخامة الاستعداد البحرى والبرى ، وعادت تحمل تلك الأنباء إلى العاصمة ورجالها فى القسطنطينية ، وتنصح بضرورة اتخاذ الاحتياطات للدفاع ، ولاسيما الاهتمام بالناحية البحرية . واتجهت خطة الروم البحرية إلى خلق قاعدة لأسطولهم ، تكون مهمتها عرقلة زحف الأسطول العربى على القسطنطينية وإنشاء قاعدة أخرى قوية فى العاصمة نفسها لمقاومة حصار الأسطول العربى إذا ما استطاع الوصول إلى مياه القسطنطينية .

---

(١) الطبرى : ج ٨ ، ص ٦٨ .

(٢) حسن إبراهيم ، المرجع السابق ص ٢٢٠ .

وتجلت سياسة الروم الجديدة حين جعلوا من شواطىء آسيا الصغرى والجزر القريبة منها إقليماً بحريًّا حربيًّا ، ترسو فى قواعده سفن حربية على أهبة الاستعداد للقتال ، وفى نفس الوقت أقام الروم فى جهات بحر مرمرة المواجهة للقسطنطينية فرقاً بحرية تساعد أسطول العاصمة على الدفاع ، وقد نال أمير البحر على أسطول القسطنطينية سلطات واسعة ، تخول له حق تنظيم وسائل التعاون بين أسطول شواطىء آسيا الصغرى وأسطول ساحل بحر مرمرة (١) .

وفى نفس الوقت أعادت سلطات الروم تجديد أسوار القسطنطينية ، ولاسيما الجهات المطلة منها على المياه ، حيث كان التداعى قد دب فيها ، ثم وضعت على تلك الأسوار كل الآلات الحربية من المجانيق وغيرها من وسائل الدفاع ، واستعد سكان القسطنطينية لحصار قد يطول إلى ثلاث سنوات ، ووضعوا فى خزائن منازلهم كميات كبيرة من الغلال (٢) .

ورأى إمبراطور الروم المبادرة بعرقلة استعداد العرب البحرى ، ولاسيما أن وفاة الوليد وتولى أخيه سليمان الخلافة لم يترتب عليه فتور فى تلك الاستعدادات (٣) . إذ عمد الخليفة سليمان بدوره إلى خلق تعاون وثيق بين الأساطيل العربية فى مصر والشام والاستعانة كذلك بالأسطول العربى الفتى فى شمال إفريقيا التى ضُمَّتْ إذْ ذاك للدولة الإسلامية ، فأبحر أسطول من مصر إلى شواطىء الشام لجمع أخشاب من سواحل لبنان لتصنع منها سفن حربية جديدة فى دور الصناعة بمصر ، لتعزيز الأسطول العربى المتجه لحصار القسطنطينية .

وعندما علم إمبراطور الروم بأنباء استعداد الأسطول العربى ، عمد إلى مهاجمة الأسطول المصرى ، وتخريب الأخشاب التى يحملها قبل وصولها إلى

---

(١) د . محمد عبد المنعم خفاجى : صور من الإسلام ص ٥٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٥٧ .

(٣) الطبرى : ج ٨ ، ص ١١٨ .

دور الصناعة فى مصر ، وعهد الإمبراطور إلى فرق الحرس الإمبراطورى ـــ وهى أشد فرق الجيش بأساً وتدريباً على فنون القتال البحرى ـــ بتنفيذ تلك المهمة ، ولكن باءت مجهودات الإمبراطور أنسطاسى بالفشل ، لعصيان الفرق الإمبراطورية لأوامره وكراهيتها له ، إذ شقت عصا الطاعة حين وصل الأسطول الذى يقلها إلى رودس ، وقتلت القائد الذى عينه الإمبراطور لإدارة عمليات الهجوم .

ورأى الخليفة سليمان حين وصلته أنباء ذلك العصيان أن الوقت قد حان لضرب القسطنطينية مرة أخرى .(١) وفى سنة ٩٨هـ ـــ ٧١٧ م تحركت الجيوش الإسلامية والأسطول العربى من الشام تحت إمرة أخيه مسلمة الذى سبق أن عينه الوليد قائدًا عامًّا ، وكانت خطة مسلمة أن تسبق القوات البرية الأسطول العربى فى الزحف عبر آسيا الصغرى ، وتمهد لخلع الإمبراطور ، ثم تنتظر الأسطول على الشاطئ الآسيوى عند البسفور .

وسارت الجيوش العربية عبر آسيا الصغرى ، واتفق مسلمة بن عبد الملك مع أحد قادة الروم الحانقين على الإمبراطور ، ويدعى ليو الإيسورى ، على الذهاب إلى القسطنطينية ، وإحداث فتنة بها ، مقابل تعهد مسلمة له بتنصيبه إمبراطورًا جديدًا على دولة الروم ، غير أن ليو حنث بتعهده ، إذ ماكاد يدخل القسطنطينية ، حتى استغل أنباء الحملة الإسلامية الزاحفة على العاصمة ، واستمال الناس بها إليه ، ثم عزل الإمبراطور أنسطاسى وتولى العرش ، معلناً قدرته على صد الهجوم المنتظر ، بسبب وقوفه على خطط العرب .

وبعد خمسة أشهر من تولى ليو العرش وصلت قوات مسلمة البالغ عددها ٨٠,٠٠٠ جندى إلى أسوار القسطنطينية ، وبعد ستة عشر يوماً من وصول

---

(١) اتخذ الخليفة مقر قيادته فى دابق بشمال الشام . « وأعطى الله عهدًا ألّا ينصرف حتى يدخل الجيش الذى وجهه إلى الروم القسطنطينية » . انظر الطبرى ج ٨ ص ١١٨ .

مسلمة إلى أسوار عاصمة الروم ، أى فى أول سبتمبر سنة ٧١٧ م دخل مياه البسفور أول أسطول عربى كبير مكون من ١٨٠٠ سفينة حربية ، عدا سفن صغيرة أخرى كثيرة . وأخذ مسلمة ينظم التعاون بين قواته البرية والأسطول العربى لإتمام حلقة الحصار حول القسطنطينية ، فاضطلعت قوات مسلمة البرية بحصار أسوار المدينة من الناحية البرية ، على حين عمد سليمان ، أمير البحر العربى ، إلى سد المنافذ والمسالك المائية التى يمكن أن تحصل منها العاصمة على الإمداد والمؤن ، ثم فَرَضَ حصارًا على الأسوار البحرية كذلك .

وأخذ الأسطول العربى ينفذ خطته ، فاحتل مدخل البسفور الجنوبى لقطع الاتصال بين القسطنطينية وبحر مرمرة ، الذى يعد مصدر تموين للعاصمة من الجنوب ، ثم انتهز أمير البحر سليمان فرصة هبوب رياح جنوبية طيبة وبعث شطرًا من أسطوله لاحتلال مدخل البسفور الشمالى لمنع وصول أى مدد يأتى للمدينة من البحر الأسود ، ولاسيما أن شواطىء هذا البحر الشمالية كانت غنية بحقول القمح التى تزود القسطنطينية بالغلال .

وسارت السفن العربية الكبرى سيرًا بطيئاً لتحقيق الخطة الخاصة باحتلال المدخل الشمالى للبسفور ، بسبب التيار المائى الشديد الذى يتدفق من البحر الأسود إلى بحر مرمرة ، ثم حدث حادث قلب خطط الأسطول العربى رأساً على عقب ، إذ غيرت الرياح الجنوبية ، التى اعتمد عليها أمير البحر العربى فى إكمال حلقة الحصار البحرى على القسطنطينية ، اتجاهها فجأة ، شأن الأحوال الجوية فى تلك المنطقة ، فاختل سير السفن لسوء الأحوال الطبيعية ، التى زادتها قسوة رداءة الملاحة فى تلك المياه الإقليمية للقسطنطينية .

وقد انتهز الروم تلك الفرصة التى نشرت الفوضى فى صفوف الأسطول العربى ، وبعثوا سفنهم المحملة بالنار البحرية ليزيدوا فى متاعب السفن العربية وبحارتها ، ولذا تعتبر طبيعة الملاحة حول القسطنطينية ، وكذلك الأحوال

الجوية حولها ، هى العامل الأول والرئيسى فى الحيلولة بين الأسطول العربى وبين تنفيذ خطته الخاصة بغلق مدخل البسفور الشمالى ، أما النار البحرية التى علقت عليها المراجع الأوربية أهمية كبيرة فى إنقاذ القسطنطينية ، فليست إلا عاملاً ثانويًا أُضيف إلى أعباء العرب ، وأنها ليست العامل الأول أو الرئيسى فى فشل خطة الأسطول العربى ، إذ يُلاحظ أن الإمبراطور ليو لم يجرؤ على إرسال سفنه المحملة بتلك النار إلا بعد أن لعبت الطبيعة دورها فى الوقوف فى وجه الأسطول العربى .

غير أن القائد العام ، مسلمة بن عبد الملك ، صمم على محاصرة القسطنطينية برًّا برغم بقاء جبهتها المطلة على القرن الذهبى مفتوحة ، وظل الحصار مستمرًّا حتى جاء الشتاء ، فتابع الحصار برغم قسوة الطبيعة فى تلك الفترة من السنة (١) .

وبمطلع الربيع وصلت نجدات بحرية وبرية للقائد مسلمة بن عبد الملك ، فجاء أسطول من مصر بقيادة أمير بحر يدعى سفيان ، وآخر من شمال إفريقيا تحت إمرة شخص يدعى يزيد ، وهناك تَعاوَن هذان القائدان البحريان مع مسلمة ، لأن أمير البحر ، السابق سليمان تُوفى من قبل أثناء الشتاء ، وكذلك وصلت نجدات برية بقيادة رجل يدعى مرداس ، اضطلعت بمهاجمة شواطئ البسفور البحرية لتحول بين السفن التابعة للروم وبين الخروج طلباً للحصول على صيد بحرى يغذى سكان العاصمة ، أو الذهاب إلى البحر الأسود لجلب الغلال من شواطئه .

واستخدمت القوات العربية لأول مرة النفط ، كما استعانوا بنوع من المجانيق

---

(١) كان القائد مسلمة قد احتاط للعوامل الجوية فى تلك المنطقة ، فعمل « بيوتاً من خشب شتا فيها وزرع الناس .. وأقام بالقسطنطينية قاهرًا ، ومعه وجوه أهل الشام » انظر : الطبرى : ج ٨ ص١١٧ .

أشبه بالمدفعية فى هذا الحصار ، وكذلك أبدى الجند من ضروب الشجاعة ما شهد لهم بعلو روحهم المعنوية . وظهر من الجند العرب عبد الله البطال ، كبير حراس مسلمة بن عبد الملك ، الذى أبلى فى هذا الحصار بلاءً حسناً أكسبه لقب زعيم الأبطال ، وغدا اسمه موضوعاً لعدد من القصص تناولت شجاعته باسم « السيد غازى » (١) .

غير أن حصار القسطنطينية ظل ناقصاً برغم أعمال البطولة التى أبداها الجند العرب ، ذلك أن العوامل الطبيعية بالقرب من القسطنطينية لعبت دورها مرة أخرى فى عرقلة نشاط الأسطول العربى ومنعه من مساعدة القوات البرية فى حصارها لعاصمة الروم ، إذ بينما وقفت الجيوش العربية أمام أسوار القسطنطينية وفرضت عليها حصارًا شديدًا ، لم يستطع الأسطول السير شمالاً للسيطرة على مضيق البسفور ، وكان السبب فى ذلك هو اشتداد تدفق التيار المائى من البحر الأسود عبر البسفور إلى بحر مرمرة ، بسبب تغيير الرياح لاتجاهها فى تلك المنطقة من جنوبية إلى شمالية .

وقد ترتب على تلك العوامل الطبيعية عجز السفن الحربية عن عبور البسفور ، وبالتالى عدم تحقيق الخطة الخاصة بإحكام حلقة الحصار حول القسطنطينية ، فبينما نجحت بعض وحدات الأسطول العربى فى حرمان عاصمة الروم من الاتصال بمصادر تموينها فى الجنوب فى جزر بحر مرمرة وبحر إيجه كذلك ، ظلت الجبهة الشمالية للعاصمة على اتصال بسواحل البحر الأسود ، التى أمدتها بما احتاجت إليه من الغلال وغير ذلك من المواد الغذائية ، وكانت القسطنطينية ترى فى جبهتها الشمالية مصدر الحياة الحقيقى ، برغم أن الجهات الجنوبية القريبة منها أمدَّتها بالرجال والقوى المحاربة ، فكان سكان عاصمة الروم يرتبون خططهم الدفاعية على أساس الاستقلال عن المساعدات الحربية ، وبذل قصارى جهدهم فى الاحتفاظ بمصادر غذائهم من ناحية الشمال .

(١) العيون والحدائق : ج ٣ ، ص ٢٤ .

وفى تلك الفترة التى اشتد فيها الحصار العربى للقسطنطينية توفى الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وتولى بعده الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وتردد صدى هذا التغيير فى سير الحملة المحاصرة للقسطنطينية ، إذ رأى الخليفة الجديد أن الأوضاع الخاصة بالدولة الإسلامية تتطلب تنظيماً وتدعيماً بعد أن صارت رقعتها شاسعة ، وأن إيقاف العمليات الحربية الكبرى شرط أساسى للحصول على الاستقرار المنشود لتلك الدولة الشاسعة .

ولذا اتجهت أنظار الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى سحب الأسطول العربى والقوات البرية المحاصرة للقسطنطينية ، فأرسل فى ١٥ أغسطس سنة ٧١٨ م ، أى بعد حصار دام اثنى عشر شهرًا كاملاً ، يطلب من مسلمة العودة بأساطيله وجيوشه إلى الشام ، وبذلك عادت تلك الحملة العربية التى تعد من أضخم الأعمال البحرية التى شاهدها البحر المتوسط طوال تاريخه الحافل بالنشاط الحربى .

وإذا كانت طبيعة الملاحة بالقرب من القسطنطينية قد حالت بين الأسطول العربى وبين الاستيلاء على تلك العاصمة ، فإن نتائج النشاط البحرى العربى فى مياه القسطنطينية قد تردد صداه فى الشطر الغربى من البحر المتوسط ، ذلك أن تكريس الروم لجهودهم وأساطيلهم من أجل الدفاع عن عاصمتهم ضد النشاط البحرى العربى قد هيأ للأسطول العربى خلق قاعدة جديدة له فى شمال إفريقيا ، صارت فيما بعد دعامة السيادة العربية فى غرب البحر المتوسط .

ـ ٢ ـ

الأسطول العربى فى شمال إفريقية

ولقد سارت خطوات نشاط البحرية العربية فى غرب البحر المتوسط فى طريق مماثل لنشأة النشاط البحرى العربى فى الشطر الشرق من هذا البحر ، ذلك أن أحداث الفتح العربى لشمال إفريقيا ، الذى بدأ بعد الاستيلاء على مصر ، حمل العرب على بناء أسطول لهم فى مياه المغرب يساعدهم على إتمام مشاريعهم وتأمين فتوحاتهم .

وكانت بلاد شمال إفريقيا تابعة للروم ، الذين عمدوا إلى التشبث بالدفاع عن هذا الجزء من ممتلكاتهم ليكون عوضاً لهم عما فقدوه من ولايات فى شرق البحر المتوسط . وكان الإمبراطور قنسطانز الثانى هو صاحب تلك السياسة الجديدة بعد هروبه من وقعه ذات الصوارى البحرية (٣٤هـ ـ ٦٥٥ م) . فبينما شغلت الدولة الإسلامية بفتنة مقتل عثمان بن عفان وماتلاها من صراع بين على ومعاوية ، تحول ذلك الإمبراطور إلى العناية بشمال إفريقيا .

ودفع الإمبراطور قنسطانز إلى الاهتمام بأحوال شمال إفريقيا عجزه عن هزيمة الأسطول العربى الذى ظهر بأسه فى وقعة ذات الصوارى ، ومن ثَمَّ أخذ يعمل على تنظيم شئون دولته البحرية بما يجعلها تواجه الأمر الواقع ، وهو أن العرب صاروا قوة كبيرة فى البحر المتوسط ، وأن الحكمة تقضى خلق قاعدة بحرية للروم بعيدة عن بطش الأسطول العربى الفتى ، وتكون وسيلة فى المستقبل لكسر شوكته .

وبدأ قنسطانز ينفذ سياسته البحرية الجديدة حين اختار صقلية لتكون

مركزًا للمقاومة ضد النشاط البحرى العربى المتزايد ، فنقل عاصمته إلى تلك الجزيرة بعد وقعة ذات الصوارى ، ثم عهد إلى تدعيم أساطيله هناك بربط ماتبقى لدولته من أملاك فى إيطاليا مع ممتلكاته فى شمال إفريقيا لتصير قوة لها بأسها ، واستهل قنسطانز نشاطه البحرى الجديد من عاصمته سرقوسة (سيراكوز) بصقلية ، حيث بعث أساطيله منها لتغير على القوات العربية التى وصلت طلائعها إلى تونس .

ونجح قنسطانز بفضل قوته البحرية فى استرداد الأقاليم التى فتحها العرب فى برقة وتونس ، كما حصن مدن شمال إفريقيا الهامة مثل قرطاجنة ، وزاد عدد السفن الحربية فيها . غير أن أعمال قنسطانز اتسمت بالقسوة ، ونجم عنها مؤامرة انتهت بالتخلص منه ، وقتله غيلة فى عاصمته الجديدة ، وذلك فى ١٢ يوليو سنة ٦٦٨ م .

غير أن مقتل قنسطانز لم يؤثر فى سياسة الروم البحرية فى غرب البحر المتوسط ، إذ صارت أساطيل الروم تقف بالمرصاد للفتوحات العربية التى اتجهت فى نشاط إلى شمال إفريقيا بعد تولى معاوية بن أبى سفيان عرش الخلافة ، فعندما خرج عقبة بن نافع لغزو شمال إفريقيا سنة ٥٠ هـ ـــ ٦٧٠ م اتبع الطريق الداخلى ليكون بمأمن من إغارات سفن الروم ، ثم إنه أسس أول قاعدة عربية حربية فى شمال إفريقيا ، وهى القيروان (١) بعيدًا عن الساحل ، حتى تكون عسيرة المنال على الأساطيل المعادية (٢) .

ولكن سياسة عقبة لم يكتب لها النجاح بسبب وجود أساطيل الروم وقدرتها على الاتصال بالبربر سكان شمال إفريقيا ، إذ أعد الروم بالاتفاق مع البربر كميناً عند بلدة تهودة ، قضى على عقبة أثناء عودته من إحدى الإغارات

(١) القيروان ، لفظ فارسى معرب ، معناه قافلة أو مراح القوافل .
(٢) المالكى ، رياض النفوس ، ص٦ .

بشمال إفريقيا (١). وقد عجز زهير بن قيس البلوى خليفة عقبة والذى سار سنة ٦٩ هـ ـ ٦٨٨ م إلى شمال إفريقيا عن تدعيم الفتوحات العربية هناك بسبب سياسة الروم البحرية كذلك .

وكانت خطة الروم تجرى على أساس استغلال افتقار العرب إلى أسطول يساند فتوحاتهم وزحفهم على شمال إفريقيا ، فلم يتعرض أسطول الروم لقوات زهير أثناء توغلها فى بلاد المغرب ، حتى صارت خطوط التموين العربية طويلة ومن السهل مهاجمتها من البحر ، ولم يتنبه زهير لهذا الخطر الكامن له من ناحية البحر ، وتابع فتوحاته ، وعندما فرغ زهير من حملته قفل عائدًا إلى برقة ، حيث جرت العادة على عودة القوات العربية إلى مصر بعد إنهاء مهمتها فى شمال إفريقيا .

وفى تلك الأثناء تجمعت سفن الروم بالقرب من ساحل برقة لمهاجمة قوات زهير وهى منهوكة القوى ، لتنقضَّ عليها فجأة ، وقد علم زهير عندما اقترب من برقة بنزول جند من الروم على ساحلها ، بدون أن يتوقع قوة استعداد الروم البحرى ، إذ اعتقد زهير أن سفناً ضئيلة للروم قد رست بشواطئ برقة ولاضير من مهاجمتها .

وذهب زهير إلى الساحل على رأس نفر يسير من قواته ليستطلع الأخبار فوجد الروم فى سفن كثيرة العدد ، ومعهم عدد من أسرى المسلمين ، ولم يكد هؤلاء الأسرى يرون زهيرًا حتى استغاثوا به مستنجدين ، فأخذت الحمية زهيرًا ومن معه وأسرعوا بمهاجمة سفن الروم لتخليص الأسرى ، غير أن الروم كانوا قد أعدوا معسكرًا على الشاطئ بعيدًا عن أعين العرب ، ولذا ماكادت أقدام زهير ومن معه تطأ أرض الساحل حتى فاجأه جند الروم المختفى فى

---

(١) السلاوى ، الاستقصا ، ص٣٨ ، ابن عبد الحكم ص ١٩٨ .

المعسكر ، ودارت رحى معركة قاسية ، استشهد فيها زهير ، كما استشهد عقبة من قبل عند تهودة [1] .

وكان لاستشهاد زهير بأرض برقة نتائج بعيدة المدى فى سياسة العرب البحرية فى غرب البحر المتوسط ، إذ أدركت السلطات الأموية فى دمشق أن الموقف يتطلب انتزاع قواعد الروم البحرية بشمال إفريقيا ، ثم إنشاء أسطول عربى آخر فى مياه تلك الجبهة الجديدة ، تكون مهمته القضاء على سيادة الروم البحرية فى غرب البحر المتوسط .

واضطلع بتنفيذ تلك السياسة العربية البحرية الجديدة حسان بن النعمان الذى اتجه إلى شمال إفريقيا سنة ٧٦ هـ ـــ ٦٩٥ م . وبادر حسان بمهاجمة قرطاجنة ، أقوى قاعدة لأسطول الروم فى مياه المغرب ، وكان يدرك أن نجاحه يتوقف على سرعة العمل والتنفيذ ، ومن ثم فاجأ المدينة بقواته الهائلة وأنزل بالروم هزيمة فادحة ، انسحبت على إثرها سفنهم بالميناء ، والتجأت إلى صقلية [2] .

غير أن الروم انتهزوا ابتعاد حسان فى فتوحاته عن قرطاجنة وعادت أساطيلهم مرة ثانية إليها ، واستولت على هذا الميناء الهام بعد قتل الحامية العربية ، ولكنَّ حساناً عاد سريعاً وأفسد خطة الروم باسترداده لقرطاجنة [3] . وقد جذبت تلك الإغارة أنظار حسان إلى الخطة البحرية التى يجب أن يسير عليها إزاء الروم ، إذ عرف أن للروم على الساحل معاقل أخرى يتخذونها وسيلة لاسترداد قواعدهم البحرية الكبرى .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ج ٤ ، ص ١٧٨ .

(٢) البكرى وصف إفريقيا ، ص ٣٧ ، وابن الأثير الكامل فى التاريخ ، ج ٤ ، ص ١١٣ .

(٣) ابن عذارى ، المقرب ج ١ ، ص ٢٠ .

ومن ذلك أن الروم حاولوا بعد خروجهم من قرطاجنة للمرة الثانية اتخاذ شبه الجزيرة الواقع شمال تونس ، والذى تقع فيه بنزرت مقرًّا لأعمالهم الحربية ضد العرب ، وتعرف هذه المنطقة بإقليم سطفورة ، وتضم عددًا كبيرًا من المدن التى تعتمد على البحر فى الدفاع عن نفسها والحصول على الإمداد ، ولذا بادر حسان بطرد الروم من تلك الجهات الساحلية ودعم أقدام العرب فيها (١) .

ولكن حساناً أحس أن الروم لن يكفوا عن إغارتهم طالما يفتقر العرب إلى أسطول يحمى شواطئ شمال إفريقيا ، وكان حسان صادق الظن ، إذ انتهز إمبراطور الروم انشغال حسان بفتن داخلية فى شمال إفريقيا ، وبعث سنة ٧٨ هـ ــ ٦٩٧ م أسطولا عظيماً على رأسه أشهر قادته ، وهو البطريق يوحنا ، واستولى على قرطاجنة مرة أخرى ، ومن ثم بعث حسان فى طلب أسطول عربى يشد من أزره فى استرداد قرطاجنة ، وجاءته عدة سفن حربية كانت أول قوة بحرية عربية ظهرت فى مياه شمال إفريقيا .

واستطاع حسان بفضل المعونة البحرية أن ينال نصرًا باهرًا على الروم ، إذ دارت رحى معركة بحرية بين أسطول العرب وأسطول الروم ، انتهت بانتصار العرب ، الذين أثبتوا للروم مرة أخرى أن أسطول العرب الفتى قد صار قوة شديدة البطش ، وآثر أمير البحر على أسطول الروم الفرار عائدًا إلى بلاده . ثم إن حساناً رأى أن يتخذ هذا الأسطول العربى الذى جاء لنجدته نواة لخلق قوة بحرية فى أرض المغرب ، تعمل على شد أزر العرب فى فتوحاتهم وأعمالهم ، فأنشأ قاعدة تونس (٢) . التى حلت محل قرطاجنة ، وصارت مركز البحرية العربية ونشاطها المبكر فى غرب البحر المتوسط .

وخطا الأسطول العربى الفتى فى غرب البحر المتوسط خطوات سريعة فى

---

(١) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ص ٢٠ .

(٢) انظر الفصل السادس من هذا الكتاب .

سبيل المجد والقوة ، على نحو ما قام به قرينه فى شرق البحر المتوسط ، وتجلت مظاهر نشاط الأسطول المغربى فى عهد ولاية موسى بن نصير ، الذى خلف حسان بن النعمان على شمال إفريقيا سنة ٨٩ هـ ــ ٧٠٧ م . إذ استهل هذا الوالى الجديد حكمه بإرسال أسطوله لمطاردة الروم من قواعدهم فى الجزر القريبة من الممتلكات العربية فى شمال إفريقيا ، فهاجمت السفن المغربية جزر منورقة وميورقة بالقرب من سواحل أسبانيا ، وضمتها إلى التبعية للعرب بشمال إفريقيا (١) .

وفى عهد موسى بن نصير قام العرب كذلك باستخدام أسطولهم لفتح شبه جزيرة أيبيريا ، والانتقال إلى مرحلة جديدة من التوسع ، وإتمام سيادتهم على البحر المتوسط . وفى سنة ٧١٠ م خرج أحد قادة موسى بن نصير ، وهو طريف ، على رأس حملة بحرية قوامها أربعمائة راجل ومائة فارس استولت على شبه الجزيرة الصغيرة التى تعتبر أقصى جزء فى الجنوب من القارة الأوربية .

ولقد ظلت شبه الجزيرة تحمل اسم طريف إلى الآن ، حيث « تدعى تاريفا » أى جزيرة طريف ، وتمثل النتائج الأولى لنشاط العرب البحرى فى الميدان الغربى للبحر المتوسط . ثم لم تلبث جهود العرب البحرية أن اتسعت فى العام التالى لغزوة طريف ، حيث قام طارق بن زياد على رأس حملة كبيرة أقلتها سفن عديدة إلى الصخرة العظيمة ، التى مازالت منذ ذلك اليوم تخلد هذا العبور البحرى العظيم ، وهى جبل طارق . وتابع موسى بن نصير الاهتمام بالأسطول العربى فى المغرب لنقل الإمدادات الحربية وغيرها إلى المقاتلين فى أسبانيا ، حتى انتهى الأمر باستيلاء العرب على هذا الركن الهام من جنوب أوربا .

ثم إن الأسطول العربى المغربى على عهد موسى بن نصير سجل نصرًا بحريًّا

---

(١) أبو المحاسن ، ج ١ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

آخر ، ساعد على تقدم العرب البحرى فيما بعد نحو الاستيلاء على الجزر الكبرى فى البحر المتوسط ، ذلك أن موسى بن نصير وجه نظره إلى السيطرة على جزيرة قوصرة [1] ، وهى المشهورة اليوم باسم بنطلارية ، بسبب قربها من البلاد التونسية ، من الشمال الشرقى . وقد تمتعت تلك الجزيرة بموقع ممتاز يساعد على الدفاع عن شمال إفريقيا ، ويمكن اتخاذها فى نفس الوقت قاعدة للتوسع البحرى كذلك ، إذا تقترب جزيرة قوصرة من صقلية ، التى كانت القاعدة الكبرى لأسطول الروم فى غرب البحر المتوسط ، ومركز المقاومة لنشاط العرب البحرى .

وقد أشاد الجغرافيون والرحالة العرب بهذا الموقع الممتاز لتلك الجزيرة لأنها ، « قبالة إفريقية بالقرب من تونس ، وبينها وبين صقلية مجرى ، ويوجد بها شجر المُصْطَكَى ، ويجلب منها التين والقطن الكثير » ، وقد صمم موسى ابن نصير سنة ٨٨ هـ ــ ٧٠٧ م على الاستيلاء على تلك الجزيرة الهامة ، واتخاذها قاعدة أمامية لأسطوله فى صد هجمات الروم ، وقد انتدب لتلك المهمة أحد قادته الأبطال ، وهو عبد الملك بن قطن الفهرى ، الذى خرج على رأس أسطول قوى من القاعدة البحرية الجديدة فى تونس ، واستولى على جزيرة قوصرة ، وضمها إلى ولاية إفريقية [2] .

وتابع خلفاء موسى بن نصير سياسة الاحتفاظ بتلك الجزيرة فى حيازتهم ، ذلك أن الروم عمدوا إلى انتزاعها من أيدى الأسطول العربى خوفاً من قربها من قاعدتهم بصقلية ، ومن ذلك أن حبيب بن أبى عبيدة الفهرى سار إلى قوصرة

---

(١) قوصرة اسم يونانى ومعناه السلة أو السفط أو الزنبيل ، ويبدو أن هذا الاسم أطلق عليها للمشابهة الموجودة بين صورة الجزيرة والسلة ، وتحمل كلمة قوصرة فى اللغة العربية نفس المعنى ، وهو وعاء التمر أو القفة والزنبيل . (انظر حسن حسنى عبد الوهاب ، قصة جزيرة قوصرة العربية بالمجلة التاريخية المصرية ، أكتوبر سنة ١٩٤٩) .

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب ، المرجع السابق .

على رأس أسطول آخر سنة ١١٨ هـ ـــ ٧٣٦ م ، ودعم السيادة العربية بها . غير أن استيلاء العرب نهائيًا على تلك الجزيرة كان سنة ١٣٠ هـ ـــ ٧٤٨ م حين أوفد الأمير عبد الرحمٰن بن حبيب الفهرى حملة بحرية سيطرت تماماً على جزيرة قوصرة ، وجعلتها قاعدة دائمة للأسطول العربى فى غرب البحر المتوسط (١) .

وسرعان ما ظهر نشاط الأسطول العربى من قاعدته الجديدة فى جزيرة قوصرة ، إذ خرجت سفنه تباعاً من تلك الجزيرة حيث أغارت على صقلية ، وأنزلت التخريب والتدمير بأسطول الروم الراسى فى موانيها . وقد ساعدت تلك الحملات البحرية على دراسة شواطىء صقلية دراسة تامة ، وجعلت العرب على خبرة كبيرة بقواعدها ، وخير الطرق للاستيلاء عليها . وظهرت نتائج حملات العرب البحرية التى خرجت من جزيرة قوصرة حين قامت أسرة الأغالبة فى تونس ، إذ اتخذت من تلك الجزيرة قاعدة لتحقيق سياستها فى الاستيلاء على جزيرة صقلية ، وبعث نشاط بحرى عربى حافل فى غرب البحر المتوسط .

---

(١) حسن حسنى عبد الوهاب المرجع السابق